

دفاعاً عن العقل والدين، تعلم دروس بلاغة العرب

أ. د. عيسى علي العاكوب (*)

قصدُ القائلِ مِنَ المَقَالِ:

يَقْصِدُ الكَاتِبُ فِي هَذِهِ المُقَدِّمَةِ إِلَى بَيَانِ الفِكرَةِ المُتَأَصِّلَةِ فِي ثِقَاتِنَا العَرَبِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ؛ وَهِيَ أَنَّ قِيَمَةَ العِلْمِ مِنْ قِيَمَةِ المَعْلُومِ. ثُمَّ يَنْطَلِقُ مِنْ تَبْنِي هَذَا المَبْدَأِ إِلَى أَسَاسِ فِكْرِيٍّ عَمَلِيٍّ يَذْهَبُ إِلَى القَوْلِ إِنَّ عُلُومَنَا جَمِيعًا يَنْبَغِي أَنْ تُحَاكَمَ بِمَعْيَارِ الفَائِدَةِ العَمَلِيَّةِ. وَفِي مَجَالِ عُلُومِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، مِنْ نَحْوِ وَصْرَفٍ وَبَلَاغَةٍ وَعَرُوضٍ... إلخ، عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَبْتَّ مِنْ مَبْلَغِ انْتِفَاعِ طَلَبَةِ العِلْمِ فِي مَيَادِينِ الحَيَاةِ مِنْ مَبَاحِثِ العِلْمِ الَّتِي يَتَلَقَّوْنَهَا. وَالإِهْمَالُ فِي إِعْمَالِ ذَلِكَ جَالِبٌ لِقَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الضَّمِيمِ إِلَى عُقُولِ المُتَعَلِّمِينَ، الَّذِينَ هُمْ أَنْفُسُهُمْ فِي طَرِيقِ أَنْ يَغْدُوا مُعَلِّمِينَ.

وَإِذَا كَانَتْ عُلُومُ العَرَبِيَّةِ، الَّتِي يَنْتَظِمُ فِي أَقْسَامِهَا آلاَفُ مُؤَلَّفَةٍ مِنَ الطُّلَّابِ فِي مَطَّلَعِ كُلِّ عَامٍ عَلَى امْتِدَادِ دِيَارِ العَرَبِ، تَقْصِدُ فِي نِهَايَةِ المَطَافِ إِلَى تَأْهِيلِ

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، أستاذ البلاغة والنقد في جامعة حلب.

ورد إلى المجمع بتاريخ ١٤/٩/٢٠٢٣ م.

أفرادٍ يُتَظَرُّ مِنْهُمُ أَنْ يَكُونُوا مُعَلِّمِي الْعَرَبِيَّةِ فِي الْغَدِ، بَدَأْنَا حَجْمَ الْأَهْمِيَّةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُؤَلَّى لِطَبِيعَةِ الْمَادَّةِ الْمَعْرِفِيَّةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُخْتَارَ لِكَيْ يَتَعَلَّمُوهَا. وَإِذَا كُنْتُ مُسْتَيَقِنًا تَمَامًا عَدَمَ انْشِغَالِ أَقْسَامِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِتَحْدِيدِ الْفَائِدَةِ الْمَرْجُوءَةِ مِنْ تَدْرِيسِ مَقَرَّرَاتٍ مِنْ قَبِيلِ النَّحْوِ وَالصَّرْفِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْعَرُوضِ وَالشُّعْرِ وَالنَّثْرِ...، فَإِنِّي مُسْتَيَقِنٌ تَمَامًا أَيْضًا عَدَمَ انْشِغَالِ هَذِهِ الْأَقْسَامِ وَمُعَلِّمِيهَا وَطُلَّابِهَا بِالْفَائِدَةِ الْمُنتَظَرَةِ مِنْ تَدْرِيسِ عُلُومِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ مَعَانٍ وَبَيَانٍ وَبَدِيعٍ.

- عِلْمُ الْبَلَاغَةِ عِلْمٌ بِطَبِيعَةِ أَجْمَلِ الْكَلَامِ:

تَفَرِّضُ طَبِيعَةُ الْأَشْيَاءِ أَنْ يَنْصَرِفَ تَعْلِيمُ الْبَلَاغَةِ إِلَى التَّعْرِيفِ بِمَا هِيَ أَجْمَلُ الْكَلَامِ إِدْرَاكًا وَفَهْمًا وَإِنْتِاجًا وَقُدْرَةً عَلَى التَّعْلِيمِ؛ فَعَلَى الْمُتَعَلِّمِ، مَثَلًا، أَنْ يُدْرِكَ وَيَفْهَمَ الْمُرَادَ الدَّقِيقَ مِنْ قَوْلِ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ: «الْبَلَاغَةُ هِيَ مُطَابَقَةُ الْكَلَامِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ مَعَ فَصَاحَتِهِ». وَهَذَا مِنْ صِنْفِ مَا يُسَمُّونَهُ التَّعْرِيفَاتِ الْجَامِعَةَ الْمَانِعَةَ. وَيَعْنِي ذَلِكَ عَلَى نَحْوِ دَقِيقٍ تَحْقِيقٍ أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنْ صِيَاغَةِ الْمُتَكَلِّمِ كَلَامَهُ وَفَقًّا لِلْحَالِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا مُتَلَقِّي كَلَامِهِ. وَيَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ «قُدْرَةَ كَشْفٍ» عَالِيَةً عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ يَكْشِفُ بِهَا الْحَالَ الذُّهْنِيَّةَ لِمُخَاطَبِيهِ كَشْفًا لَا يُعْفِلُ جَانِبًا مِنْ جَوَانِبِهَا؛ وَيَسْتَلْزِمُ إِلَى ذَلِكَ «قُدْرَةَ إِنتِاجٍ» لِمَوَالِدِ الْكَلَامِ؛ أَيَّ أَنْ يَأْتِيَ الْمُتَكَلِّمُ بِأَنْسَبِ الْمُنَاسِبِ مِنْ جِنْسِ الْكَلَامِ لِمُتَلَقِّي كَلَامِهِ. وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَنْشَأَ عَنْ ذَلِكَ أَنَّ كَلَامَ الْأَذْكِيَاءِ لِلأَذْكِيَاءِ طِرَازٌ خَاصٌّ مِنَ الْكَلَامِ؛ وَمِنْ هَذِهِ الْوَجْهَةِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كَلَامُ الْأَنْبِيَاءِ لِحَوَارِيِّيهِمْ وَخُلَّصِ مُجَبِّهِمْ طِرَازًا عَالِيًا مِنَ الْكَلَامِ. وَفِي مُتَنَاولِي أَنْ أَمْضِيَ فِي الْاسْتِنْتِاجِ إِلَى أْبَعَدَ مِنْ ذَلِكَ فَأَقُولُ: لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامُ رَبِّ الْعِبَادِ الْمُوجَّهٌ إِلَى الْعِبَادِ مِنْ أَكْثَرِ ضُرُوبِ الْكَلَامِ مُطَابَقَةً لِمُقْتَضَى الْحَالِ، وَأَكْثَرُهَا فَصَاحَةٌ.

- الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَجْمَلُ كَلَامٍ، وَأَكْثَرُ كَلَامٍ مُطَابَقَةً لِمُقْتَضَى الْحَالِ مَعَ الْفَصَاحَةِ الْمُطْلَقَةِ:

هذه الفكرة أُحْدِثَ بِهَا صِنْفًا خَاصًّا مِنَ الْبَشَرِ: صِنْفًا مُتَحَرِّرًا مِنْ عَقْدِ الْكِبَرِ وَالْعِنَادِ وَالرَّفْضِ لِمُجَرِّدِ الْكِبَرِ وَالْعِنَادِ وَالرَّفْضِ؛ صِنْفًا يُذْعِنُ لِلْحَقِيقَةِ فَقَطْ لِأَنَّهَا حَقِيقَةٌ؛ صِنْفًا شِعَارُهُ الْعِبَارَةُ الْعَرَبِيَّةُ: الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالْبَاطِلُ لَجَلَجُ. وَوَصِفُ آخَرَ لَا زِمَ لِهَذَا الصَّنْفِ، وَهُوَ الْخِبْرَةُ اللَّغَوِيَّةُ فِي اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَفِي غَيْرِهَا مِنَ اللَّغَاتِ إِنْ أُمَكَّنَ ذَلِكَ.

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَجْمَلُ كَلَامٍ عَرَفَهُ الْوُجُودُ، وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَحَدَهَا الْوِعَاءُ لِأَجْمَلِ الْكَلَامِ. وَلَا مَنَاصَ مِنْ أَنْ يَنْصَرِفَ تَعْلِيمُ «الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ» إِلَى تَعْلِيمِ مَا هِيَ الْجَمَالِ فِي أَسْمَى نَمُودَجٍ لُغَوِيٍّ عَرَبِيٍّ؛ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

- الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذَبَ عُقُولَ قَارئِي الْقُرْآنِ وَأَطْلَقَ أَلْسِنَتَهُمْ وَرَفَّقَ طِبَاعَهُمْ:

لِيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا أَقْوَلُ: لِنَقْرَأَ تَرَاجِمَ أَفْذَادِ الْأُمَّةِ عَلَى امْتِنَادِ الْقُرُونِ، أَوْ لِنَقْرَأَ عَدَدًا مِنْهَا، لِكَيْ نَتَبَيَّنَ تَأْثِيرَ الْكَلَامِ الْقُرْآنِيِّ الْإِلَهِيِّ فِي الْعُقُولِ وَالْأَخْيَلِ وَالسَّلَاقِ. قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَشَهَادَتُهُ عِنْدَنَا حَقٌّ يَقِينٌ -: «مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ فِي شَبَابِهِ اخْتَلَطَ الْقُرْآنُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ؛ وَمَنْ تَعَلَّمَهُ فِي كِبَرِهِ وَهُوَ يَنْفَلِتُ مِنْهُ فَلَا يَتْرُكُهُ، فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ»^(١).

- الْمُواظَبَةُ عَلَى تَدْبِيرِ الْكَلَامِ الْقُرْآنِيِّ مُوَاطَبَةٌ عَلَى تَدْبِيرِ أَنْسَابِهِ مَقَالٍ لِأَنْسَابِ حَالٍ:

لَا يَنْبَغِي الْبُتَّةَ أَنْ يُعْفَلَ فِي تَعْلِيمِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَكْلِيفُ الطُّلَّابِ

(١) الْمَدْخَلُ إِلَى عِلْمِ السُّنَنِ لِلْإِمَامِ الْبَيْهَقِيِّ، بِعِنَايَةِ مُحَمَّدِ عَوَامَةَ، بِرَقْمِ ١٧٣٩، دَارُ الْيُسْرِ.

اسْتَظْهَرَ قَدْرَ مُنَاسِبِ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى تَأْمُلِ نَظْمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْمُتَمَثِّلِ فِي اخْتِيَارِ الْمُفْرَدَاتِ وَتَرْتِيبِهَا فِي رِصْفٍ خَاصٍّ مُتَمَيِّزٍ هُوَ الَّذِي تَنَشَأُ عَنْهُ فَصَاحَةُ الْقُرْآنِ وَبَلَغَتُهُ وَبَيَانُهُ وَبِرَاعَتُهُ، كَمَا يَذْهَبُ إِلَى ذَلِكَ عَالِمُ الْإِعْجَازِ الْبَيَانِيِّ الْقُرْآنِيِّ، عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ.

وَالكَلَامُ الْإِلَهِيُّ الْقُرْآنِيُّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، نَمُودَجٌ عَالٍ لِمُنَاسِبَةِ الْكَلَامِ لِمَنْ يُوَجَّهُ إِلَيْهِ. وَكَثْرَةُ تَأْمُلِ مَظَاهِرِ هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ بَاعِثَةٌ فِي نَفْسِ الْمُتَأْمِلِ عَلَى أَنْ يَحْرِصَ عَلَى تَكْلِيمِ النَّاسِ بِكَلَامٍ يُنَاسِبُ مَا تَصَوَّرَهُ الْمُتَكَلِّمُ فِي نَفْسِهِ مِنْ أَحْوَالِهِمُ الذُّهْنِيَّةِ وَالْمِزَاجِيَّةِ.

- تَأْسِيسُ عُلُومِ الْبَلَاغَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ عَلَى أُسُسِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ:

اسْتَقَرَّ فِي أَذْهَانِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ أَرْقَى نَمُودَجٍ لِلْعَرَبِيَّةِ، إِنَّمَا بَرَزَ بِجَلَاءٍ تَامٍّ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَلَيْسَ عِنْدِي مَا يُثِيرُ شُبْهَةً أَنَّ الطَّابِعَ الدِّينِيَّ لِلْمَادَّةِ الْمَعْرِفِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ قَدْ نَأَى بِلُغَةِ الْقُرْآنِ عِنْدَهُمْ عَنْ أَنْ تَكُونَ نَمُودَجًا عَالِيًا لِللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ. بَلْ كَانَ تَظْهَرُ دِينَ الْإِسْلَامِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مَحَلًّا تَقْدِيسٍ وَإِعْلَاءٍ لِمَنْزِلَةِ الْعَرَبِيَّةِ. وَقَدْ اسْتَفَادَتِ الْعَرَبِيَّةُ كَثِيرًا مِنْ كَوْنِهَا الْوَعَاءَ لَوْحِي اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. فَالشَّكْلُ اللَّغَوِيُّ الْعَرَبِيُّ أَصْلَحَ شَكْلًا لُغَوِيًّا لِلْمَادَّةِ الْمَعْرِفِيَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

وَقَدْ أُسِّسَتْ قَوَائِنُ الْكَلَامِ الْفَصِيحِ الْبَلِغِ فِي الْعَرَبِيَّةِ عَلَى نِظَائِرِهَا الْمُتَمَيِّزَةِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ. وَتَبَعًا لِذَلِكَ جَاءَ الشَّطْرُ الْأَعْظَمُ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فِي أُمَّهَاتِ مَصَادِرِ الْبَلَاغَةِ وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ، مِنْ مَسْبُوكَاتِ قُرْآنِيَّةِ.

- اِخْتِصَاصُ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ بَيْنِ بَلَاغَاتِ الْأُمَمِ جَمِيعًا بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْمَوْضُوعِ الْإِلَهِيِّ وَالتَّقْنِيَّاتِ الْأَدَائِيَّةِ الْمُتَحَلِّيَّةِ بِرَوْعَةِ الصَّبَاغَةِ وَجاذِبِيَّةِ السَّبْكِ:

يُنْبَغِي أَنْ يَتَذَكَّرَ مُعَلِّمُو الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ دَائِمًا أَنَّ الشَّوَاهِدَ الْبَلَاغِيَّةَ الْقُرْآنِيَّةَ هِيَ أَقْدَرُ أَدَوَاتِ التَّمَثِيلِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِصِيَاجَاتِ الْمَعَانِي وَصُورِ الْبَيَانِ وَالْحَلِيِّ الْبَدِيعِيَّةِ. وَتَمَكَّنْ مُعَلِّمُ الْبَلَاغَةِ مِنْ فَهْمِهَا وَإِفْهَامِهَا بِاعْتِاقِ قَوِيٍّ عَلَى نَجَاحِ الْمَعَلِّمِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْإِزْتِقَاءِ بِأَذْهَانِ الْمُتَعَلِّمِينَ وَإِعْدَادِهِمْ لِكَيْ يَكُونُوا رِجَالًا مُجْتَمَعًا مُتَمَيِّزِينَ تَسْمَعُ كَلِمَتَهُمْ وَيُسْتَطَابُ حَدِيثُهُمْ وَيُزَكَّنُ إِلَى آرَائِهِمْ.

- حِرْمَانُ الْعُقُولِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ إِدْرَاكِ رَوْعَةِ الْبَيَانِ الْإِلَهِيِّ وَالبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ اعْتِدَاءً عَلَى الْعَقْلِ وَالدِّينِ:

يَعْتَقِدُ الْكَاتِبُ أَنَّ الْوُجُودَ الْمُتَعَيَّنَ كُلَّهُ آيَاتٌ دَالَّةٌ وَشَوَاهِدٌ قَائِمَاتٌ تُؤَدِّي الْحُجَّةَ عَنِ الصَّانِعِ الْعَظِيمِ الْقَادِرِ الْحَكِيمِ، وَتَشْهَدُ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ الْكَامِلَةِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ فِي مَضْمُونِهِ وَشَكْلِهِ آيَةٌ دَالَّةٌ وَشَاهِدٌ قَائِمٌ لَا يَغِيبُ عَلَى الْمُتَكَلِّمِ الْإِلَهِيِّ الْعَظِيمِ الْقَادِرِ الْحَكِيمِ، وَأَنَّ الْقَصْدَ إِلَى حِرْمَانِ الْعُقُولِ مِنْ تَعَرُّفِ مَظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْفَيْتَةِ حِرْمَانٌ لَهَا مِنْ أَسْبَابِ قُوَّةِ لِلنَّمَاءِ وَالْإِزْدِهَارِ، وَإِضْعَافٌ مُتَعَمِّدٌ لِرُوحِ الدِّينِ، وَإِقْصَاءٌ عَنِ التَّحَقُّقِ بِالْيَقِينِ. وَقَدْ مَنَّ شَيْخُ الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ عَلَيْنَا بِتَحْدِيدِ بَعْضِ مَظَاهِرِ رَوْعَةِ الْبَيَانِ الْإِلَهِيِّ وَالبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَبَيَانِ فَضْلِ إِدْرَاكِهَا الْإِدْرَاكِ الدَّقِيقِ فِي إِنْمَاءِ الْعَقْلِ وَالدِّينِ وَزِيَادَةِ الْعِلْمِ وَالْيَقِينِ حِينَ قَالَ:

أَعْجَزَتْهُمْ [الْعَرَبَ] مَزَايَا ظَهَرَتْ لَهُمْ فِي نَظْمِهِ [الْقُرْآنِ]،
وَخَصَائِصُ صَادَفُوهَا فِي سِيَاقِ لَفْظِهِ، وَبِدَائِعُ رَاعَتْهُمْ مِنْ مَبَادِيءِ آيِهِ
وَمَقَاطِعِهَا وَمَجَارِي أَلْفَاظِهَا وَمَوَاقِعِهَا، وَفِي مَضْرِبِ كُلِّ مَثَلٍ، وَمَسَاقٍ

كُلَّ خَبْرٍ، وَصُورَةَ كُلِّ عِظَةٍ وَتَنْبِيهِ وَإِعْلَامٍ، وَتَذْكَيرٍ وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيْبٍ،
وَمَعَ كُلِّ حُجَّةٍ وَبُزْهَانٍ، وَصِفَةٍ وَتَبْيَانٍ. وَبَهْرَهُمْ أَنَّهُمْ تَأَمَّلُوهُ سُورَةَ
سُورَةَ، وَعُشْرًا عُشْرًا، وَآيَةً آيَةً، فَلَمْ يَجِدُوا فِي الْجَمِيعِ كَلِمَةً يَنْبُو بِهَا
مَكَانَهَا، وَلَفْظَةً يُنَكِّرُ شَأْنَهَا، أَوْ يَرَى أَنَّ غَيْرَهَا أَصْلَحُ هُنَاكَ أَوْ أَشْبَهُ، أَوْ
أُخْرَى وَأَخْلَقُ. بَلْ وَجَدُوا اتِّسَاقًا بَهَرَ الْعُقُولَ، وَأَعْجَزَ الْجُمْهُورَ،
وِنِظَامًا وَالتِّمَامًا وَإِنْتِقَانًا وَإِحْكَامًا، لَمْ يَدْعُ فِي نَفْسٍ بَلِغٍ مِنْهُمْ وَلَوْ حَاكَ
بِإِفْوَحِهِ السَّمَاءَ، مَوْضِعَ طَمَعٍ، حَتَّى خَرِسَتْ الأَلْسُنُ عَنِ أَنْ تَدْعِيَ
وَتَقُولَ... نَعَمْ، فَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ الَّذِي يُذَكِّرُ فِي جَوَابِ السَّائِلِ، فَبِنَا أَنْ
نَنْظُرَ: أَيُّ أَشْبَهُ بِالْفَتَى فِي عَقْلِهِ وَدِينِهِ، وَأَزِيدُ لَهُ فِي عِلْمِهِ وَيَقِينِهِ، أَلَّا
يُقَلِّدَ فِي ذَلِكَ وَيَحْفَظَ مَتْنِ الدَّلِيلِ وَظَاهِرَ لَفْظِهِ وَلَا يَبْحَثَ عَنِ تَفْسِيرِ
الْمَزَايَا وَالْخَصَائِصِ: مَا هِيَ؟ - وَمِنْ أَيْنَ كَثُرَتِ الكَثْرَةُ العَظِيمَةُ،
وَاتَّسَعَتِ الاتِّسَاعَ المُجَاوِزَ لِوُسْعِ الخَلْقِ وَطَاقَةِ البَشَرِ...؟ - أَمْ أَنْ
يَبْحَثَ عَنِ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَيَسْتَقْصِي النَّظَرَ فِي جَمِيعِهِ، وَيَتَّبَعُهُ شَيْئًا فَشَيْئًا،
وَيَسْتَقْصِيهِ بَابًا فَبَابًا، حَتَّى يَعْرِفَ كَلًّا مِنْهُ بِشَاهِدِهِ وَدَلِيلِهِ، وَيَعْلَمَهُ
بِتَفْسِيرِهِ وَتَأْوِيلِهِ...؟^(٢)

- البَلَاغَةُ القُرْآنِيَّةُ تَمَثِيلُ عَالٍ جَدًّا لِانْتِحَاءِ سَمْتِ كَلَامِ العَرَبِ:

أَسَالِيبُ التَّعْبِيرِ وَطَرَائِقُ البَيَانِ فِي الكِتَابِ الإِلَهِيِّ العَزِيزِ، هِيَ عَيْنُ أَسَالِيبِ
التَّعْبِيرِ وَطَرَائِقِ البَيَانِ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الَّتِي عَاصَرَتْ تَنْزُلَ الوَحْيِ الإِلَهِيِّ، لَكِنْ
بِقَدْرِ مِنَ الكَمَالِ وَالرَّوْعَةِ وَالخِلَابَةِ غَيْرِ مَوْجُودٍ فِي عَرَبِيَّةِ خَلْقِ ذَلِكَ الزَّمَانِ.

(٢) عَبْدُ القَاهِرِ الجُرْجَانِي، دَلَائِلُ الإعْجَازِ، قَرَأَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ شَاكِرٌ، ط ٣، مَكْتَبَةُ

وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذَا أَنَّ تَدْرِيسَ طُلَّابِ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ قَوَانِينَ جَمَالِ الْأَدَاءِ الَّتِي حَدَدْتُهَا عُلُومُ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَجَالَاتِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ، وَاجِبٌ تَفْرِضُهُ ضَرُورَاتُ وَعِيِ الْعَرَبِ ذَاتِهِمْ وَتَخْلِقَهُمْ فِي الْفِكْرِ وَالْخِيَالِ وَالْأَدَبِ. وَفِي التَّارِيخِ الْفِكْرِيِّ وَالْعِلْمِيِّ وَالْأَدَبِيِّ لِلْعَرَبِ أَنَّ الْوَعْيَ الْلُغَوِيَّ سَبَقَ كُلَّ حَرَكَةٍ لِلتَّقَدُّمِ الْفِكْرِيِّ وَالْعِلْمِيِّ. وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْوَعْيَ الْلُغَوِيَّ هَيَأُ لِرِاقَةِ عُقُولِ الْعَرَبِ أَنْفُسِهِمْ، وَلِعُقُولِ الْمُسْتَعْرِبِينَ الطَّارِئِينَ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ.

- رُبَّمَا يَكُونُ مُفِيداً فِي تَدْرِيسِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي عُلُومِهَا

الثالثة، حَصَّهَا بِسَاعَاتٍ دَرَسِيَّةٍ أَكْثَرَ، وَجَعَلَ هَذَا التَّدْرِيسَ فِي اتِّجَاهَيْنِ: اتِّجَاهٍ نَظْرِيٍّ يُعْتَمَدُ فِيهِ كِتَابُ مَدْرَسِيٍّ يَنْطَوِي عَلَى الْمَادَّةِ الْمَعْرِفِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي تَعْرِيفَاتِهَا وَتَقْسِيمَاتِهَا وَشَوَاهِدِهَا وَأَمْثَلَتِهَا؛ وَاتِّجَاهٍ تَطْبِيقِيٍّ تُعْتَمَدُ فِيهِ مَادَّةٌ قُرْآنِيَّةٌ وَحَدِيثِيَّةٌ وَأَدَبِيَّةٌ عَرَبِيَّةٌ مُخْتَارَةٌ، حَيْثُ تُطَبَّقُ عَلَى هَذِهِ الْمَادَّةِ الْمَعَارِفِ النَّظْرِيَّةِ، وَيَتَلَمَّسُ الدَّارِسُونَ بِأَنْفُسِهِمُ الْمَزَايَا الْبَلَاغِيَّةَ وَمَظَاهِرَ الْأَدَاءِ الْقُرْآنِيِّ الْمُعْجَزِ فِي مَجَالَاتِ عُلُومِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ.

- شَرَفَ الْخَالِقُ الْعَظِيمُ سُبْحَانَهُ الْعَرَبِيَّةَ بِاخْتِيَارِهَا لُغَةً عَرَضَ بِهَا كُلُّ عُنَاصِرٍ مَا شَاءَ أَنْ يَعْرِفَهُ الْبَشَرُ فِي شَأْنِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَمَا فَرَضَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَاتٍ وَعِبَادَاتٍ، وَمَا سَيَّوَجَّهَهُمْ فِي الْحَيَاةِ، وَمَا يَنْتَظِرُهُمْ مِنْ مَصِيرٍ. وَالْبَادِي لِلْعَيَانِ أَنَّ رَبَّ الْوُجُودِ سُبْحَانَهُ هَيَأُ هَذِهِ اللَّغَةَ وَتَكَلَّمَهَا قَبْلَ نَزُولِ الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ بِزَمَانٍ لَكِي تَكُونَ هِيَ لُغَةً كَلَامِهِ وَلَكِي يَكُونُوا هُمْ النَّوْعَ الْبَشَرِيَّ الْأَوَّلَ الَّذِي يَتَلَقَّى كَلَامَهُ، وَيَتَحَسَّسُ بِالْقَلْبِ وَالْعَقْلِ وَاللِّسَانِ عَظْمَةَ الْمُعْجَزَةِ الْبَيَانِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ. فَكَانَ الْأَمْرُ ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]. وَكَانَ الْعَالِمُ الْفَقِيهُ الْلُغَوِيُّ ابْنُ جَنِّي (ت ٣٩٢هـ) بَصِيرًا تَمَامًا حِينَ رَبَطَ بَيْنَ النَّحْوِ وَالْعَرَبِ فَقَالَ:

«التَّحْوُّهُ هُوَ انْتِحَاءٌ سَمَتِ كَلَامِ الْعَرَبِ، فِي تَصَرُّفِهِ مِنْ إِعْرَابٍ وَغَيْرِهِ؛ كَالشَّيْنَةِ وَالْجَمْعِ وَالتَّحْقِيرِ وَالتَّكْسِيرِ وَالْإِضَافَةِ وَالنَّسَبِ وَالتَّرْكِيبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِيَلْحَقَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِأَهْلِهَا فِي الْفَصَاحَةِ، فَيُنْطَقَ بِهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ، وَإِنْ شَدَّ بَعْضُهُمْ عَنْهَا رُدُّ بِهِ إِلَيْهَا»^(٣). وَلَنْ نَتَلَكَّأَ هُنَا فِي اسْتِتَاجِ رَبِطِ مَشْرُوعِ تَمَامًا بَيْنَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْعَرَبِ مِنْ جِهَةٍ، وَالْإِعْرَابِ الْإِلَهِيِّ عَنِ الْمُرَادِ. فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ قَاصِدٌ أَسَاسًا إِلَى الْإِعْرَابِ عَنِ مُرَادِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ خَلْقِهِ؛ وَالْعَرَبِيَّةُ قَادِرَةٌ بِسَمْتِهَا، بِإِذْنِ اللَّهِ، عَلَى أَدَاءِ الْمُهِمَّةِ؛ وَأَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَقِنُونَ الْمُجَوِّدُونَ لَهَا الْمُدْرِكُونَ دَلَائِلَ إِعْجَازِ بَيَانِهَا فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ هُمْ الْأَفْذَرُ عَلَى بَيَانِ مُرَادِ الْحَقِّ تَعَالَى مِنَ الْخَلْقِ.

– الْقُرْآنُ شَرَفٌ لِنَبِيِّ اللَّهِ الْعَرَبِيِّ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَكَذَا

شَرَفٌ لِلْعَرَبِ، وَقَدْ خُصَّ الْعَرَبُ بِأَنَّهُمْ سَيَسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِيَعْلَمَ ذَلِكَ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ. قَالَ الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ عَنِ الْقُرْآنِ مُخَاطِبًا النَّبِيَّ الْعَدْنَانَ وَالْعَرَبَ أَهْلَ اللِّسَانِ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. يَقُولُ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْمُرَادِ هُنَا: «وَإِنَّ الَّذِي أَوْحِيَ إِلَيْكَ ﴿لَذِكْرٌ﴾: لَشَرَفِ ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، لَسَوْفَ ﴿تُسْأَلُونَ﴾ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَنْ قِيَامِكُمْ بِحَقِّهِ، وَعَنْ تَعْظِيمِكُمْ لَهُ، وَشُكْرِكُمْ عَلَى أَنْ رَزَقْتُمُوهُ وَخَصِصْتُمْ بِهِ مِنْ بَيْنِ الْعَالَمِينَ»^(٤).

وَلَيْسَ مِنْ صِلَاحِ الْأَمْرِ وَلَا صَوَابِ التَّدْبِيرِ الْإِخْلَالُ بِتَدْرِيسِ مَظَاهِرِ فَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ. وَيَبْدُو أَنَّ الْإِهْتِمَامَ بِذَلِكَ وَإِيْلَاءَهُ حَقَّهُ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ. وَيَبْنَعِي أَنْ يَأْتِيَ هَذَا الْإِهْتِمَامُ مِنَ الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةِ مَعًا.

(٣) الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية،

القاهرة ١٣٧١هـ-١٩٥٢م، ج ١ ص ٣٤.

(٤) الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٤ ص ٢٥٤.

– لِلْعَرَبِيَّةِ خَاصِّيَّاتٌ ذَاتِيَّةٌ انْفَرَدَتْ بِهَا، أَوْلَّانَهَا، وَاللَّهُ الْأَعْلَمُ،

لِأَنَّ تَخْتَارَ لُغَةً لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَلَا يُخْتَارُ لِلْجَمِيلِ إِلَّا الْجَمِيلُ:

الْعَرَبِيَّةُ لُغَةٌ «الإِعْرَابِ» أَي الإِبَانَةِ، وَيَرَى الْمُحَقِّقُ ابْنَ جَنِّي أَنَّ «الإِعْرَابَ» مَا خُوذُ لُغَةً مِنْ «العَرَبِ»، وَعِنْدَهُ «أَصْلُ هَذَا كُلِّهِ قَوْلُهُمْ: «العَرَبُ»؛ وَذَلِكَ لِمَا يُعْزَى إِلَيْهَا مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالِإِعْرَابِ وَالْبَيَانِ»^(٥).

وَفِي مَادَّةِ الْعَرَبِيَّةِ نَفْسُهَا مُوَاطَّاةٌ وَمُوَافِقَةٌ لِطَبَاعِ الْبَشَرِ «فَجَمِيعُ عِلَلِ النَّحْوِ إِذَا مُوَاطَّاةٌ لِلطَّبَاعِ، وَعِلَلُ الْفِقْهِ لَا يَنْقَادُ جَمِيعُهَا هَذَا الْانْقِيَادَ»^(٦). فَهُنَاكَ، مَثَلًا، تَجَنَّبُ تَأْمُّ لِلثَّقَلِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَ«إِهْمَالُ مَا أَهْمِلَ مِمَّا تَحْتَمِلُهُ قِسْمَةُ التَّرَكِيبِ فِي بَعْضِ الْأُصُولِ الْمُتَصَوَّرَةِ أَكْثَرُهُ مَثْرُوكٌ لِلِاسْتِثْقَالِ»^(٧)، «وَإِذَا اجْتَمَعَ حَرْفَانِ مِنْ حُرُوفِ الْحَلْقِ قُدِّمَ الْأَقْوَى عَلَى الْأَضْعَفِ»^(٨)، «وَأَنَا أَرَى أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُقَدِّمُونَ الْأَقْوَى مِنَ الْمُتَقَارِبَيْنِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ جَمَعَ الْمُتَقَارِبَيْنِ يَثْقُلُ عَلَى النَّفْسِ، فَلَمَّا اعْتَزَمُوا النُّطْقَ بِهِمَا قَدَّمُوا أَقْوَاهُمَا لِأَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ رُبْنَةَ الْأَقْوَى أَبَدًا أَسْبَقُ وَأَعْلَى؛ وَالْآخَرُ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُقَدِّمُونَ الْأَثْقَلَ وَيُوَخِّرُونَ الْأَخْفَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ الْمُتَكَلِّمَ فِي أَوَّلِ نُطْقِهِ أَقْوَى نَفْسًا وَأَظْهَرُ نَشَاطًا، فَقَدَّمَ أَثْقَلَ الْحَرْفَيْنِ، وَهُوَ عَلَى أَجْمَلِ الْحَالَيْنِ، كَمَا رَفَعُوا الْمُبْتَدَأَ لِتَقَدُّمِهِ، فَأَعْرَبُوهُ بِأَثْقَلِ الْحَرَكَاتِ وَهِيَ الضَّمَّةُ، وَكَمَا رَفَعُوا الْفَاعِلَ لِتَقَدُّمِهِ، وَنَصَبُوا الْمَفْعُولَ لِتَأَخُّرِهِ»^(٩).

(٥) الخصائص، ١ ص ٣٦.

(٦) نَفْسُهُ، ١ ص ٥١.

(٧) نَفْسُهُ، ١ ص ٥٤.

(٨) نَفْسُهُ.

(٩) نَفْسُهُ، ١ ص ٥٥.

– شَطْرُ كَبِيرٍ مِّنْ تَخَلُّفِ الْعَرَبِ فِي الزَّمَانِ الْمُنَاخِرِ نَاشِئٌ عَنِ إِهْمَالِ التَّعْلِيمِ الْجَادِّ لِعُلُومِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ:

يُظْهِرُ التَّطَبُّقُ الدَّقِيقُ لِمَبْدَأِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ الْأَسَاسِيِّ، الْقَائِلِ: «الْبَلَاغَةُ هِيَ مُطَابَقَةُ الْكَلَامِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ مَعَ فَصَاحَتِهِ»، الْحِدَّةُ الذَّهْنِيَّةُ وَثِقَابَةُ التَّبَصُّرِ عِنْدَ الْمُتَحَدِّثِينَ وَالْمُحَدَّثِينَ؛ فَإِنَّ الْبَلِيغَ حِينَ يَشَاءُ مُبَاشِرَةً تَكْلِيمِ أَحَدٍ يُعْمَلُ عَقْلُهُ وَذَكَاءُهُ فِي تَصَوُّرِ الْحَالِ الْإِدْرَاكِيَّةِ لِمُخَاطَبِهِ، وَهِيَ حَالٌ فِي غَايَةِ التَّعْقِيدِ وَالتَّرْكِيبِ وَتَعَدُّدِ الْمَكُونَاتِ وَالْعُنَاصِرِ؛ ثُمَّ اعْتِمَادًا عَلَى هَذَا التَّصَوُّرِ يَخْتَارُ عُنَاصِرَ كَلَامِهِ مِنْ أَلْفَاظٍ وَمَعَانٍ فَيَسْبِكُهَا وَيُفْرِغُهَا فِي قَوَالِبِ كَلَامِيَّةٍ. وَقَدْ تَبَهَّنَا الْجَاحِظُ (ت ٢٥٥هـ) عَلَى صِفَاتِ خَيْرِ الْكَلَامِ فَقَالَ: «وَأَجُودُ الشُّعْرِ مَا رَأَيْتَهُ مُتَلَاحِمَ الْأَجْزَاءِ، سَهْلَ الْمَخَارِجِ، فَتَعَلَّمَ بِذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ أَفْرَغَ إِفْرَاغًا وَاحِدًا وَسَبِكَ سَبِكًا وَاحِدًا فَهُوَ يَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ كَمَا يَجْرِي الدَّهَانُ»^(١٠).

وَقَدْ حَدَّثَ فِي قَدِيمِ الْعَهْدِ أَنَّ أَحَطًا بَعْضُ حُذَاقِ الْكَلَامِ سَبِيلَ إِنْتَاجِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ، بِسَبَبِ سَهْوٍ أَوْ عَقْلَةٍ أَوْ خَطَرَةٍ بِلَادَةٍ، فَلَمْ يَأْتِ كَلَامُهُ مُطَابِقًا لِمُقْتَضَى الْحَالِ، فَأَثَارَ حَفِيظَةً مِّنْ جَاءِ يَخْطُبُ مَوَدَّتَهُ وَيُؤَمِّلُ مَرْضَاتَهُ وَمُكَافَأَتَهُ. وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ طَبَّاطِبَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْعَلَوِيُّ (ت ٣٢٢هـ) تَحْتَ عُنْوَانِ: «الْأَيَّاتُ الَّتِي زَادَتْ قَرِيحَهُ قَائِلِيهَا عَلَى عُقُولِهِمْ»، أَيْبَاتًا كَثِيرَةً لِشُعْرَاءِ كِبَارٍ أَخْفَقُوا فِيهَا فِي تَطْبِيقِ مَبْدَأِ «مُطَابَقَةِ الْكَلَامِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ»، فَذَهَبُوا بِسَبَبِ ذَلِكَ بِرُؤَاةِ الْفَصَاحَةِ وَرَوْنِقِ الْبَلَاغَةِ. وَمِنْ ذَلِكَ مَثَلًا أَنَّ كَثِيرًا الْمُدْهَبِ الْعَقْلِ بِ«عَزَّةٍ» تَمَنَّى لَهُ وَلَهَا أَنْ يَكُونَا بَعِيرَيْنِ هَمَلَيْنِ أَجْرَبَيْنِ لِرَجُلٍ كَثِيرِ الْمَالِ بِهِ غِرَّةٌ وَسَدَاجَةٌ، يَتْرُكُهُمَا لِشَأْنِهِمَا فَيُدْفَعُهُمَا النَّاسُ عَنِ الْمَوَارِدِ وَيُرْمِيَانِ وَيُضْرَبَانِ وَيُنْحَيَانِ عَنِ الْمَاءِ:

(١٠) البيان والتبيين، بتحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج ١، ص ٦٧.

أَلَا لَيْتَنَا - يَا عَزُّ - مِنْ غَيْرِ رَيْبَةٍ بَعِيرَانِ نَزَعَى فِي الْخَلَاءِ وَنَعَزُبُ
 كِلَانَا بِهِ عُرٌّ، فَمَنْ يَرَنَا يَقُلْ عَلَى حُسْنِهَا جَزْبَاءُ تُعْدِي وَأَجْرُبُ
 نَكُونُ لِذِي مَالٍ كَثِيرٍ مُغْفَلٍ فَلَا هُوَ يَزْعَانَا وَلَا نَحْنُ نَطْلُبُ
 إِذَا مَا وَرَدْنَا مَنَهَلًا صَاحَ أَهْلُهُ عَلَيْنَا فَلَا نَنْفَكُ نَزْمَى وَنُضْرَبُ
 وَدِدْتُ - وَبَيْتِ اللَّهِ - أَنَّكَ بَكْرَةٌ هِجَانٌ وَأَنِّي مُصْعَبٌ ثُمَّ نَهْرُبُ
 وَلَمْ تَرُقْ أُمَّيَّتُهُ هَذِهِ عَزَّةً، فَقَالَتْ لَهُ: «لَقَدْ أَرَدْتُ بِي الشَّقَاءَ الطَّوِيلَ، وَمِنْ
 الْمَيْتَةِ مَا هُوَ أَوْطَأُ مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ»^(١١).

وفي مُسْتَطَاعِ الْمُتَأَمَّلِ أَنْ يَقُولَ إِنَّ «زِيَادَةَ الْقَرِيحَةِ عَلَى الْعَقْلِ» عِنْدَ ابْنِ
 طَبَّاطَبَا تَشْبِي بَأَنَّ عَقْلَ الشَّاعِرِ فِي الشُّوَاهِدِ الْمُقَدَّمَةِ لَمْ يَعْمَلْ عَمَلَهُ الْمَشْهُودَ
 فِي اخْتِيَارِ الْمَعْنَى الْمُطَابِقِ لِمُقْتَضَى حَالِ الْمُخَاطَبِ أَوْ الْمَقُولِ فِيهِ الشُّعْرُ؛
 فَإِسَاءٌ وَهُوَ قَاصِدٌ إِلَى الْإِحْسَانِ.

- تَبْسِيرُ الْقُرْآنِ لِلذِّكْرِ يُعِينُ عَلَى اسْتِظْهَارِ شَوَاهِدِ عُلُومِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ:

قَالَ رَبُّنَا فِي الْقُرْآنِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ لَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ:
 ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]. وَيَرَى بَعْضُهُمْ أَنَّ مَعْنَاهُ
 «وَلَقَدْ سَهَّلْنَاهُ لِلْحِفْظِ وَأَعَنَّا عَلَيْهِ مَنْ أَرَادَ حِفْظَهُ، فَهَلْ مِنْ طَالِبٍ لِحِفْظِهِ
 لِيُعَانَ عَلَيْهِ؟»^(١٢). أَمَّا أَمْرٌ تَسْهِيلِ اسْتِظْهَارِ الْقُرْآنِ فَمَحَلُّ إِجْمَاعٍ وَأَمْرٌ
 مَشْهُودٌ، وَيُنَى عَلَى هَذَا أَنَّ اعْتِمَادَ أُمَّهَاتِ كُتُبِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الشُّوَاهِدِ
 الْقُرْآنِيَّةِ أَمْثَلَةٌ لِتَفْنِيَاتِ الْبَلَاغَةِ وَمَظَاهِرِ لِحَمَالِ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي اللُّغَةِ
 الْعَرَبِيَّةِ، يُيسِّرُ دَرَسَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَعَلَّمَ نَمَازِجَهَا الْمُتَمَازَةَ. وَذَلِكَ بَاعِثٌ

(١١) عِبَارُ الشُّعْرِ، بِتَحْقِيقِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ نَاصِرِ الْمَانِعِ، مَطْبَعَةُ الْمَدَنِيِّ، الْقَاهِرَةَ، ص ١٥٢.

(١٢) الزَّمْحَشَرِيُّ: الْكَشَافُ، ٤ ص ٤٣٥.

عَلَى إِغْنَاءِ مُتُونِ تَعْلِيمِ الْبَلَاغَةِ بِالشَّوَاهِدِ الْقُرْآنِيَّةِ، الْأَمْرُ الَّذِي يَعْمَلُ عَلَى
إِنْمَاءِ الْعَقْلِ وَالذِّينِ، كَمَا شَدَّدَ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْخُ الْجُرْجَانِيُّ.

قَارِئِي الْكَرِيمِ، مَا قَدَّمْتَهُ لَكَ فِي هَذَا الْمَقَالِ أَنْظَارٌ بَدَتْ لِي فِي غَايَةِ الْأَهْمِيَّةِ
فِي زَمَانٍ بَدَا وَاضِحًا فِيهِ أَنَّنَا نُسَلِسُ الْقِيَادَ لِأَوْهَامِ كَسْرَابِ بَقِيْعَةٍ، يَخَالُهُ الظَّمَانُ
مَاءً زُلَالًا، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ وَعَايْنَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا. وَخُلَاصَةٌ قُصْدِي مِمَّا تَقَدَّمَ أَنْ
نَعِيْ أَهْمِيَّةَ مَا يَحْضُلُ عَلَيْهِ طَالِبُ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ دِرَاسَةِ عُلُومِ الْبَلَاغَةِ الْأَصِيلَةِ
الَّتِي اجْتَهَدَ ذُوو الْأَفْهَامِ الثَّاقِبَةِ وَالْإِخْلَاصِ التَّامِّ فِي حُبِّ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ عُلَمَائِنَا فِي
اسْتِخْلَاصِ مَبَادِيْهَا وَقَوَائِنِهَا وَشَوَاهِدِهَا الرَّائِعَةِ؛ فَهِيَ الَّتِي تَعَلَّمُ دِلَالَاتِ التَّرَاكِيْبِ
وَمَظَاهِرِ الْجَمَالِ الْأَدَبِيِّ الرَّاقِي فِي فَاتِنَاتِ الْأَسَالِيْبِ. وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَ فِي ذَلِكَ
الْعَلَامَةُ الْفَدُّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَخْضَرِيُّ فِي مَنْظُومَتِهِ «الْجَوْهَرُ الْمَكْنُونُ»:

هَذَا وَإِنَّ دُرَرَ الْبَيَانَ	وَعُرَرَ الْبَدِيعِ وَالْمَعَانِي
تَهْدِي إِلَى مَوَارِدِ شَرِيفِهِ	وَبُنْدِ بَدِيعَةٍ لَطِيفِهِ
مِنْ عِلْمِ أَسْرَارِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ	وَدَرَكِ مَا خُصَّ بِهِ مِنْ عَجَبِ
لِأَنَّهُ كَالرُّوحِ لِلْإِعْرَابِ	وَهُوَ لِعِلْمِ النَّحْوِ كَاللَّبَابِ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

* * *